الفصل التاسع

هل الانتحار محتوم؟

آن الأوان كي نجمع خيوط مناقشتنا معاً، وننظر إن كان هناك أي طريق لمصالحة أفضل ما في الحضارة الغربية مع الاتجاهات التي فرضتها على نفسها بنفسها، وهي تمزقها إلى أجزاء، ويمكننا أن نلخص أطروحتنا لتتركز في ثلاث نقاط يسيرة.

الأولى: هي أن الحضارة الغربية حققت، في القرنين الأخيرين، وفي أفضل تجلياتها، شيئاً ما لم يسبق لأي حضارة أخرى أن نجحت في تحقيقه، فلقد حققت مجتمعاً وثقافة غنيين غنى هائلاً، لا غنى في مستويات المعيشة فقط، التي يستطيع فيها كل جيل أن يتوقع أن يتجاوز المستوى الذي وصله آباؤه، ولكنه غنى في شيء ما أثمن بشكل غير محدد، إنه غنى في الحرية.

الحرية، وهي مغفلة في الغالب إلى حد ما، مشتقة اشتقاقاً مادياً ـ فهي حرية من الحيوانات البرية، وهي تبحث عن وجبتها الآتية، وحرية من الجوع، وحرية من الريح، ومن المطر، ومن الحر، ومن البرد، وهي حرية من الجهل، والمرض، وحرية من العمل الذي يكسر الظهر، وحرية من الفقر من كل الأنواع.

والحرية أيضاً حرية من الاضطهاد من الرفاق البشر، حرية من الرق، وحرية من أعمال السخرة القسرية، وحرية من الخدمة

العسكرية غير الطوعية، وحرية من اللصوص، ومن العنف، وحرية من الآباء، ومن الرؤساء، ومن الإكراه الحكومي، ومن التمييز على أساس الجنس، أو العرق، أو القومية، أو الخلفية، أو التفضيل الجنسي، وحرية من أي شيء ينكر الكرامة الإنسانية، والحقوق في معاملة منصفة ومتساوية.

وأخيراً، فالحرية إيجابية، فهي حرية في إبداع المرء لحياته الحاضرة، وحرية في التعلم عن العالم، وأن تسهم في التعليم الجديد، والحرية في الاقتراع لتساعد في تقرير من الذي سيحكم، وحرية اختيار المرء لعمله الخاص، ولأصدقائه، ولدينه، وترتيبات حياته، وحرية جعل المرء الحياة أفضل لنفسه ولدائرته.

وبهذه المعايير تكون الحضارة الغربية بعيدة عن أن تكون كاملة، ولكنها أفضل بكثير جداً من أي حضارة أخرى، ماضية أو حاضرة، من حيث إنها تستحق الاحتفاء بها والحفاظ عليها، وعلى الرغم من كل التهديدات للمثل العليا للحضارة الغربية، فإنها اليوم أقرب إلى تلك المثل العليا منها في العام 1900، أو العام 1950.

ونقطتنا الثانية: هي أن الحضارة الغربية نتجت عن عملية طويلة وبطيئة، مستندة في نهاية المطاف إلى معتقدات متميزة عن العالم، وعن طبيعة البشر، ومستندة إلى أعمال تعمل وفق تلك المعتقدات، وهذا يصدق على أي حضارة، ولكنه صادق على نحو خاص على الغرب، وذلك لأن الغرب وضع توكيداً أكبر مما وضعته أي حضارة

أخرى على دور الرجال والنساء العاديين، وعلى عملهم التلقائي لتحسين المجتمع.

المؤسسات مهمة، طبعاً، في إدارة المجتمع، ولكن المؤسسات أقل أساسيَّة من المعتقدات، على الأقل في الغرب، وذلك لأن المعتقدات هي التي تقرر المؤسسات وتغيرها، والمؤسسات، بمعنى من المعاني، معتقدات مجمدة، وفي الغرب كان يجري تذويب التجميد عن المؤسسات في الغالب، ويعاد التجميد لها بحسب المعتقدات الجديدة، وعلى سبيل المثال، أدت المعتقدات الجديدة إلى الإصلاح البروتستانتي، وإلى كنائس جديدة، فالمعتقدات، في الغرب، هي دائماً أكثر أهمية من المؤسسات؛ لأن الغربيين يعتقدون أنهم يملكون الحق والمسؤولية لتغيير المؤسسات إن لم تبق متناسبة مع معتقداتهم، والمعتقدات تقود إلى الأفعال، وفي النهاية تصير الأفعال طبيعة ثانية، وقد لا تبقى المعتقدات الموجودة خلف الأفعال متميزة واضحة، ولا موضع تقدير كذلك، وفي هذه المرحلة، حين يكون المعتقد لا شعورياً تقريباً أو لا شعورياً بشكل كامل، فإنه يكون في أشد حالاته وأقواها.

والمثال الجيد هو «الأخلاق البروتستانتية» التي قادت الناس العاديين إلى رؤية «دعوتهم»، وعملهم، بوصفها أهم شيء في حياتهم، وبوصفها شكلاً من أشكال التعبير عن الذات، وهذه الرؤية الجادة لمسؤولية الفرد نشأت من العقائد الكالفينية واللوثرية، ولكنها صارت في غضون قرن أو قرنين بشكل جوهري تلقائية، ومنفصلة عن الدين.

وفي تحديدنا لما هو مختلف بخصوص الغرب، قمنا، بالتنقيب عن المعتقدات التي قررت، وتقرر، الأعمال الخاصة المميزة للغربيين، وقد وجدنا ستة معتقدات مهيمنة، وأنماط عمل هي التي قررت الشخصية الغربية، وهي المسيحية، والتفاؤل، والعلم، والنمو، والليبرالية، والفردية، و«عوامل النجاح» الستة هي الآن مطبوخة في طرق تفكير وتصرف خاصة ونمطية (روتينية) لا تحتاج بالضرورة إلى إعادة التوكيد، أو إلى وعي العقائد الأصلية التي تكمن خلف كل معتقد، وعلى سبيل المثال، يؤمن الغربيون بمبدأ «شخص واحد، صوت واحد»، وسيكونون منزعجين لو أخذ منهم الصوت، ولكنهم لا يحتاجون إلى أن يعرفوا أن فكرة الديمقراطية كانت قد أعطيت شكلاً مميزاً بفكرة القرن السابع عشر عن العقد الاجتماعي، ومثال آخر: يؤمن الغربيون عموماً بأفكار المسؤولية الشخصية، وبتحسين الذات وبالرحمة لمن هم أقل يسراً من حالهم، ولا يحتاجون إلى أن يكونوا مسيحيين ليشاركوا بهذه القيم، على الرغم من أن الأفكار كانت قد اشتقت من المسيحية البدائية.

المعتقدات وأنماط العمل التي تقرر طبيعة المجتمع تنشأ ببطء فقط، ومن خلال الخبرة المشتركة، وقد برزت فِكَرنا الست في تعاون وثيق إحداها مع الأخرى، طوال مدة طويلة جداً من الزمن، وتمعَّن، على سبيل المثال، في العلاقة بين النمو، والليبرالية، والفردية، فمجتمع السوق الحر الغربي، والمجتمع الفردي والديمقراطي استغرق مئات من السنين؛ ليصعد إلى السطح، ولينتصر، فلقد جاء ببطء، ومن الأدنى

بشكل رئيس، من الأعمال التلقائية للتجار الأوروبيين، وللحرفيين، وللعمال المهرة الذين شكلوا أولاً ثروة جديدة، ثم كانوا بعدئذ قادرين على أن يساوموا من أجل الحصول على حريتهم، ولقد احتاج إلى البناء التدريجي لعادات التعاون بين أولئك الموجودين في السلطة، وأولئك الناشئين في المجتمع، وقد كان لدى كل جانب شيء ما يقدمه إلى الجانب الآخر، وقد احتاج إلى الثقة واحترام الذات من أعداد كبيرة من الأفراد، وكل جانب يستفيد من الموارد الداخلية، ومفاهيم الكرامة الإنسانية، والمساواة، والمسؤولية عن العمل، وقد سبق التقدمُ الاقتصادي التقدمَ السياسي، واحتاج التقدم الاقتصادي إلى المبادرة الفردية الإنسانية، التي احتاجت بدورها إلى إيمان واسع الانتشار بقيمة الأفراد وقوتهم، وبقدرتهم على تحسين حياتهم، وحياة الجماعة التي خدموها.

ونقطتنا الثالثة والأخيرة: هي أننا نعيش في تلك المرحلة الغادرة، الساحرة التي تكون فيها المعتقدات، والأعمال الساندة للحضارة واقعة تحت الهجوم، وهي بهذا ربما تعطي إشارة إلى تحرك من حضارة إلى أخرى، وحين تختفي الحضارات، فإنها إما أن تتطور إلى حضارة أخرى، وإما أن تنهار تحت وطأة صعوبة ملاءمة طرق قديمة للتعامل بنجاح مع الظروف الجديدة، وهي عادة مناخات جديدة، أو أعداء أقوى، ولقد رأينا كل معتقدات الغرب الأساسية الستة تقع تحت هجوم شرير مستمر في القرن الأخير، من داخل الغرب نفسه، وإلى أي مدى

قد تم نقض الأفكار بالتفكير الجديد، أو بالخبرة الجديدة؟ وهل المعتقدات الجديدة، والأفعال الجديدة ضرورية لإدامة نجاح الغرب؟ دعونا نلخص تحليلنا لكل واحد من الصفات المميزة الست الأساسية.

المسيحية

من السهل أن تصير معجباً بالمناظرات الحيوية، والخطيرة غالباً، والتي تجري داخل الكنائس، بين الأديان المختلفة، وبين المؤمنين، وغير المؤمنين، ومع ذلك تفشل في ملاحظة حقيقة واحدة بسيطة، وهي أن المناقشات لم تغير قيم المجتمع، أو أنماط العمل فيه، فالتراث المسيحي، وهو المسؤولية الفردية، والتنمية، وتحسين الذات المرتكز على الحب، وعلى الالتزام بالمساواة وبالرحمة، فجَّر منذ وقت طويل ضفاف الدين المنظم، وسيكون مسيحياً شجاعاً، أو ملحداً شجاعاً مَن يؤكد أنه كان هناك الكثير من الاختلاف بخصوص المسؤولية الفردية، والحب، والرحمة بين المسيحي الغربي النموذجي، وبين غير المؤمن.

إن الصعود المتواصل لحركة مساعدة الذات، وتحسين الذات في القرنين الماضيين هو شهادة على أن روح المسيحية قد صارت منتشرة انتشاراً واسعاً، ومشرَبة إشراباً عميقاً في داخل المجتمع الغربي، ولقد جعلت الأفكار المسيحية من الممكن للمجتمع أن يتقدم من خلال مبادرة الناس العاديين، وجعلت المسيحية كذلك من الممكن أن يتم تصور حضارة مشتركة، وموحدة تنتقل إلى ما بعد سلسلة من القبائل الفردية

والأمم الفردية، مستندة إلى مبادئ من الإنصاف والمساواة، وهذا الاختراق التصوري هو الأساس للمجتمع الحديث، والمعقد، والذي يكون فيه النزاع مروّضاً ومنزوع السلاح وأن يكون هناك تعاون تلقائي وإرادي بين مئات الملايين من الأفراد، وما من حضارة غير غربية سبق لها أن استمتعت بهذا الخليط من الفاعلية، المستندة إلى المسؤولية والمبادرة الفرديتين، مع وجود انسجام اجتماعي غير قسري، إلا من خلال تأثير الغرب نفسه.

ولذلك، فنحن نعطي ضوءاً أخضر للحضارة الغربية المعاصرة في قضية المسيحية.

التفاؤل

إن كسوف التفاؤل هو تحذير للحضارة الغربية، وإن الحضارات الواثقة والمتطلعة إلى الأمام هي التي تسير قُدماً، ومن المؤكد، أن التفاؤل والتشاؤم طِرازان من الأزياء، وهما يأتيان ويذهبان، وهناك دائماً أسباب وجيهة ليكون الناس متفائلين، وأسباب مرغِمة على أن يكونوا متشائمين، ومع ذلك، فالتفاؤل مكمل للنجاح الغربي، فإذا لم يَعُد التفاؤل، إلى الأوروبيين، وإلى الأمريكيين كذلك، فإن النجاح المستمر للغرب سوف يكون مائلاً على أحد الجانبين في أفضل الأحوال، وعلى أساس أن التفاؤل فضيلة، فإننا نمنحه، بألفاظ أنوار المرور، ضوءاً أصفر لامعاً، ولكن هذا قد يكون متفائلاً جداً.

العلم

نشأ العلم الغربي من القناعة بأن الكون كان عقلانياً، وخلَقه إلهٌ أهلٌ للتوكل عليه وقدير موجود، ولقد كان من الممكن اكتشاف أسرار الكون؛ لأنها كانت قابلة للتنبؤ بها وكانت منسجمة خالية من التناقض داخلياً، وامتلك العلم سلطة أخلاقية، لا لأنه حسَّن حياة الإنسانية وحسب، بل لأنه تتبع أيضاً عظمة الله.

ومع ذلك، فقد بدا العلم، في القرن الماضي، وكأنه يكشف عن كون غير قابل للتنبؤ به، وهو كون غريب، كون أعمى أخلاقياً، ومن دون وجود أي غاية له، أو أسباب معقولة يمكن رؤيتها فيه، ولم تكن مصادفة أن الغرب رأى نشوء المعتقدات غير العقلانية، والخرافية في الوقت نفسه الذي فقدَ فيه العلم ثقته بأن الطبيعة حكيمة معقولة، وفقدَ العِلمُ الغربي، لا من خلال أي غلط بدر منه هو، بل ببساطة من خلال عملية الاكتشاف، فقدَ السلطة الأخلاقية التي تمتع بها العلماء السابقون الذين كانوا أقل معرفة، وفقدَ الثقة بأن عملهم كان قد كشف عن كون منسجم انسجاماً جميلاً ذا معنى، وعلى نحو محزن أيضاً، فإن إزالة المنطق الداخلي المثالي للعلم حدث في الوقت نفسه، مع ظهور وعي جديد تماماً، وهو أن العلم قد لا يكون دائماً صديق الإنسانية، فالأسلحة النووية، والكيماوية، والحيوية ـ وهي أسلحة من المستحيل أن تخطر للعقل من دون الرؤية العلمية الجديدة للعالم ـ قد تتسبب في الانتحار الجماعي للعالم، وهذه أسلحة ليس من المستطاع أن «لا تخترع» ، وما من أحد يعرف كيف يسيطر عليها، وإن جعْل

المجتمع لا مركزياً، والوصول إلى المعرفة، كان هو أعمق اتجاهات القرن العشرين وأدوَمها.

إن إخفاق سلطة العلم هو حسبما نعتقد، ضوء أصفر آخر، ولماذا ليس أحمر؟ حسناً، إن العلم الغربي، وعلى الرغم من أنه غير محبوب شعبياً في الغالب، فإنه لم يكن من قبل أبداً أكثر حيوية، وأكثر فائدة، أو أفضل انسجاماً مع مجتمع الأعمال، وأفضل تمويلاً (على الأقل في أمريكا)، أو أقرب إلى فهم طبيعة كوننا، والعلماء واثقون بأنفسهم، والتجديد المفتوح ينتصر. وما يفكر فيه المواطنون العاديون حول العلم مهم، ومع ذلك فإن إمكانية قيام غربٍ معادٍ للعلم، أو غربٍ بعد العلم هي أمر بعيد.

النمو

النمو الاقتصادي آمنٌ، آمنٌ بشكل كامل جداً، والتقدم القاسي الذي لا يعرف الرحمة في الصناعة المستندة إلى الآلة قد أخل إخلالاً عميقاً باستقرار التوازن البيئي للأرض، وقد يجادل المتفائلون، ضد ذلك، بأن الغرب يقوم بتوليد مصدر أخضر جديد لنمو «بلا وزن»، وذلك باستخدام مصادر متناهية أقل، تحل محل المصدر غير المتناهي للخيال الإنساني، ولكن تحويل ـ الاقتصاد المشخصن ـ تحويلاً كاملاً إلى بلدان غير غربية سوف يستغرق عقوداً عديدة، ولا يمكن عمل ذلك مطلقاً، إلا في حالة غير محتملة فقط، وهي أن تصل تلك البلدان إلى احتضان الأنماط الغربية للفكر، والعمل.

وفي الوقت نفسه، فإن البلدان غير الغربية تلحق الآن بمستويات الغرب القديمة من الإنتاج الصناعي والاستهلاك، فإذا وصلت البلدان النامية في نهاية المطاف إلى المستويات الحالية من استهلاك الدول المتقدمة، فإن الآثار السلبية على كوكب الأرض، كما رأينا، سوف تزيد 12 ضعفاً، ولو استطعنا نوعاً ما أن نتجنب انهيار الكوكب الأرضي، فإن أراضينا لن تبقى بعد ذلك خضراء، وبهيجة.

وإذا كانت ستقع نهاية كارثية للحضارة الغربية ـ بدلاً من أن تتطور تلك الحضارة إلى حضارة جديدة مختلفة ـ فإن الانتحار البيئي هو إلى درجة كبيرة أكثر الأسباب ترجيحاً، وضوء أصفر آخر ـ يلمع لمعاناً قوياً.

الفردية

صارت الفردية جزءاً لا يتجزأ من الثقافة الغربية، وفوق كل شيء في نصف القرن الماضي، إلى درجة صار معها موت الفردية أمراً غير ممكن إلى درجة عالية، فالحضارة الغربية، لا غيرها، قد طورت الاقتصاد المشخصن، والمجتمع المشخصن، الذي يقف فيه الأفراد كيانات منفردة، أو مستقلة استقلالاً ذاتياً، وهي صانعة ذاتها، أو مدمرة ذاتها، وحرة من السلطة، وغير معزولة بوقاية ضد الفشل الشخصي، وبالنسبة إلى الغربيين، جلب انتصار الفردية معه منافع ضخمة، في حث الإبداع، وتوسيع كل بُعْد من أبعاد الفرصة والحرية، وفي خلق نوع جديد تقريباً من الإنسانية، الإنسان المستقل استقلالاً ذاتياً.

وعملت الفردية أيضاً على تآكل الجماعة، وزادت ارتفاع القلق الشخصي زيادة عالية.

والفردية الغربية يكرهها أعداء الغرب، وهي تسبب الكثير من القلق المشوب بالخوف داخل الغرب، وخصوصاً في أوساط المثقفين، ومع ذلك، فنحن نحاجج، في أن البروز الحديث للفردية «الريغانية» و«الثاتشرية» قد ضلّلتنا جميعاً، وإن سلالة الفردية المحبة لذاتها، والمنكرة للمجتمع هي سلالة ليست جوهرية داخلية للفردية، ولا هي كذلك موضوعاً مناسباً لها، والفردية الأنانية هي رِدَّة جاءت في أواخر القرن العشرين، وهي تقريباً مثل الجمع بين النقيضين المختلفين، ولقد نشأت الفردية؛ لأن الله طلب من الفرد، الذي صار آمناً من قبل ضمن الجماعة، أن يقف أمام الله، ويشرح أعماله، ويعللها ذكراً كان أو أنثى، وإن الفردية قد تقدمت دائماً تابعة للقيم المسيحية والليبرالية، لقد كانت قوة محرِّرة، ومسؤولة، وديمقراطية، والتعبير الرئيس للفردية الغربية، من القرن السادس عشر، وحتى الخمسينيات من 1950 على الأقل، كان هو ما يسمى الأخلاق البروتستانتية. والشيء الرئيس بخصوص الأخلاق البروتستانتية كان نكران الذات، بل ليس العمل الشاق، ولكنه بالأحرى الإيمان بأن الفرد يجب عليه أن ينجز احترام الذات، والنجاح الدنيوي من خلال عمل إسهام كبير في النشاط الاقتصادي، ولذلك كان تعريف الفردية، والنجاح، تعريفاً اجتماعياً إلى درجة عالية، في كل الأحوال، حتى حين أخذ شكل جمع أكثر ما يمكن من المال، وعملياً، تقدم كل من الأفراد والمجتمعات الغربية على طول

طريق فردية أكبر، في نفس الوقت الذي اكتسبوا فيه حرية أكبر، وأدوا مسؤوليات أكبر لزملائهم المواطنين.

الفردية الآن، وكانت دائماً، كثيرة المطالب أخلاقياً، وإنها كذلك ميالة إلى العيش في جماعة إلى درجة عالية، فأعظم الفرديين، من يسوع المسيح إلى جان دارك إلى فناني اليوم ومديري الأعمال، كانوا متواصلين أقوياء، وكانوا بناة المجتمع، والفردية ترخي الروابط الاجتماعية الآلية، هذا صحيح، ولكنها تسمح ـ بل تتطلب ـ روابط جديدة يجب أن يختار الفرد بنفسه أن ينشئها، مثلما تحل العلاقة التبادلية محل السلطة.

ولذلك، فنحن نستنتج أن المشكلة بالنسبة إلى الحضارة الغربية ليست هي الفردية، بل هي إخفاقنا الجزئي في احتضانها احتضاناً صحيحاً، وناضجاً، واجتماعياً، وغيْرِّياً، وعلى الرغم من ذلك، فليس هناك ضوء أخضر هنا، فأعداء الفردية، والمشكلات الحقيقة «وهي نفسية أكثر منها اقتصادية كذلك» التي تخلقها الفردية لأقل أعضاء المجتمع نجاحاً، تملي ضوءاً أصفر لامعاً آخر.

الليبرالية

تركنا الليبرالية إلى الآخر؛ لأننا هنا نكتشف أعظم التعرض لخطر الإصابة بالأذى، ولقد لاحظنا خمس نقاط انتكاس إلى الاتجاه المعاكس بالنسبة إلى الليبرالية الغربية أوقعتها هي بنفسها: مكافحة الإرهاب التي أسيء توجيهها، إعادة انبعاث ما يدعى الاستعمار

الإمبراطوري «الليبرالي»، وتشظي السياسة الديمقراطية وتخفيض قيمتها، والخواء الأخلاقي لليبرالية الحديثة، والنسبية الليبرالية المفرطة، التي تقول: إنه لا يوجد أي شيء خاص بشأن المجتمع الليبرالي الغربي في نهاية المطاف، وهي تحتضن عقلية «الضحية».

وأشد ما ينذر بالخطر هو الطبيعة البنيوية لانعكاسات الليبرالية، فصحة الليبرالية متأثرة تأثراً عميقاً باللامركزية، وكذلك بالتشظي، والترذيذ اللذان يكتسحان الغرب، فحين تنضج المجتمعات الغربية، وتنمو لتصير أكثر تعقيداً، وأكثر ازدهاراً، وحين تصير الاقتصادات أكثر شخصنة، فإن السلطة واتخاذ القرارات في المجتمع تصير أكثر، فأكثر انتقالاً وتحولاً، وتصل في النهاية إلى أنشط الأفراد وأكثرهم إبداعاً داخل المجتمع، وهؤلاء الأفراد، ولأول مرة في التاريخ، لا يشكلون طبقة، أو نخبة، أو نظاماً اجتماعياً «مستقراً»، وليس لديهم عائلة مشتركة، أو روابط اجتماعية، ولا إيديولوجية مشتركة، ولا ولاء مشترك، وخلافاً لكل أسلافهم، فهم لا يحتاجون إلى هذه الصفات ليكونوا ناجحين، وهكذا، وعلى وجه العموم، فهم لا يملكون القيم وشبكات العمل التي كان من عادتها أن تساند المجتمع الليبرالي وتديمه.

هذا التضييق للآفاق (دعنا نسمه «الترذيذ») يجلب معه منافع ـ فهو يستطيع توسيع الحرية توسيعاً عظيماً ـ ومع ذلك، فقد يكون هو القوة التي تدمر الحضارة الغربية في نهاية المطاف، والمفارقة التي تبعث على السخرية هي أن الترذيذ لا يمكن عكسه إلا بعمل من

الإرادة السياسية، ويكون على الأرجح بالعودة إلى الحكم الفردي المستبد، ولذلك فإن من المغري أن نصل إلى الاستنتاج المظلم، وهو أن الحضارة الغربية إذا لم تُنتقض وتخرب بالترذيذ واللامركزية، فإنها سوف تُنتقض وتخرب على الأرجح بإعادة المركزية.

هل تستحق أزمة الليبرالية ضوءاً أحمر، أو أصفر؟ نحن نقول: إنها أكبر قضية تواجه الغرب، لسببين اثنين متناقضين تقريباً، فالليبرالية متجذرة تجذراً عميقاً في الغرب، وهي غير قابلة للتوقيف تقريباً، ومع ذلك فهي تستفز رد فعل شرير من القوى غير الليبرالية في خارج المجتمع الغربي وفي داخله، والفردية لا تقسم الغرب فعلاً، وذلك لأن الغربيين أنفسهم الذين يزعمون أنهم مناوئون للفردية هم، بأي معيار حضارة أخرى، فرديون متحمسون، ولكن أقلية كبيرة من الغربيين، تكره الليبرالية، وخصوصاً في أمريكا، وفي صفوف الأصوليين المسيحيين.

وفي الوقت نفسه، فإن الإرهابيين المعادين للغرب ـ الذين يكرهون الليبرالية طبعاً، إلى جانب الفردية ـ يحرزون حتى الآن نجاحاً غير عادي، وغير مستحق في صبهم الوقود على نيران الاستعمار الإمبراطوري الغربي الجديد، وهو حتى الآن قوة أخرى معادية لليبرالية، ومثلما هو الحال مع الشيوعية والفاشية، فالعدوان التوأم من الإسلامية المتطرفة والمحافظة المفرطة في أمريكا وأوروبة يجدان أرضية مشتركة في نبذ الليبرالية كالنفاية.

وعلى قمة كل هذا، تقترب نوعية الليبرالية الغربية، وعمقها من أخفض حال لهما في كل الأوقات، بل إن ما هو أكثر خطراً من العاطفة المعادية لليبرالية في الغرب هو الارتياب واللامبالاة اللتان تظهرهما قطاعات واسعة من السكان الغربيين الذين اعتادوا أن يكونوا، من الناحية السكانية، أو فيما يتصل بأسلوب الحياة والمواقف، أعظم مساندي الليبرالية، وهم المتقدمون من المثقفين، ودعاة حرية الإرادة والفكر والكلام، وأعضاء الاتحادات النقابية، ومَنْ جرت العادة على تسميتهم الطبقات العاملة، فهذه القطاعات المتمايزة غالباً كان من عادة كل واحدة منها أن تقدم أعداداً كبيرة من الناس الذين يملكون آراء ليبرالية قوية، وهي الآن تقدم أعداداً أقل إلى حد بعيد.

وهذا ما يلوح كأنه ضوء أحمر، ولكن هل هو كذلك حقيقة؟

* * *

وفي خلاصة أطروحتنا، نعود مرة أخرى بعد مرة إلى الغرض المشترك لأعضاء المجتمع، وهو الغرض الذي يشتق في نهاية المطاف من معتقدات يحملونها بشكل عميق، وهي في الغالب معتقدات مغمورة تماماً، وفي السنوات الأربع مئة الماضية، انهمك الغرب في تجربة كبيرة، تزيل بشكل تقدمي القيود التي كانت على الحرية وسلطة جميع أفراد المجتمع، وقد رأى المحافظون دائماً أن التجربة كانت خطرة ـ وكثيرون قالوا: إنها متهورة ـ لأنها لا تحتاج إلا إلى أقلية قليلة فقط

من المستائين لتخريب المجتمع، ومع ذلك، وبعد وضع المجرمين جانباً، فإن التجربة قد عملت، وعلى العموم، هناك قيود أقل إلى حد بعيد على الأفراد في الغرب من أي قيود كانت في أي وقت في الماضي، وفي أي مكان في العالم اليوم، ومع ذلك، فإن المجتمع الغربي يعمل عملاً جيداً على شكل مدهش، ومئات من الملايين من الأفراد يتحركون؛ ليعالجوا عملهم، وحياتهم، ويعملوا بنجاح في التعاون تعاوناً فعالاً من دون أن يدركوا مدى تعاونهم، وكم كان تعاوناً إعجازياً، وهذه التجربة الكبرى ما كان يمكن أن تكون قد عملت من دون النفوذ القوي لفِكَر الغرب الست الأساسية.

والآن، ماذا يحدث، حين تُضعِفُ الاتجاهات الموجودة في المجتمع ـ مثل الترذيذ، ومثل التحدي البيئي، ومثل وجود أسلحة مرعبة يمكن أن يصل إليها المتعصبون، ومثل القوة العسكرية اللاتماثلية الضخمة للولايات المتحدة اليوم – الفِكَر الساندة للتعاون اللاشعوري، إما بسبب أن الفِكَر لا تملك أي جواب للمشكلات الجديدة، أو لأن الناس العاديين لا يدركون أن أفضل أمل لهم لحفظ حضارتهم الرائعة هو استخدام الفِكَر التي كانت ناجحة جداً حتى تاريخه ومواءمة هذه الفِكَر؟ إن المشكلات التي تفرض نفسَها بنفسها تذهب من دون حل، وإلا فإن المحاولات التي تبذل لحل المشكلات تغير طبيعة الحضارة.

مداخل إلى حضارة غربية جديدة

كانت هناك محاولتان جادتان في القرن العشرين، وكلتاهما نشأت في داخل الغرب، لتخريب فِكَر الغرب السابقة الرابحة، وإدخال «حضارة» جديدة «وهما الشيوعية والنازية، وكلا النظامين الجديدين سحق جوهر المسيحية، والليبرالية، والفردية، في الوقت الذي تبنيا فيه نسخاً زائفة من التفاؤل، والعلم، والنمو، وإنه لتأمل مثير للاهتمام أن نتأمل فيما إذا كانت الحضارة النازية، أو الحضارة السوفيتية، ستستطيع في أي وقت أن تكون قد حكمت العالم ودامت، وهي التي استندت إلى إنكارات الكرامة الإنسانية، والرحمة، والإبداع، والعلم التجريبي الحقيقي، وربما كانوا سيستطيعون، لو أنهم كانوا قد تخلصوا أولاً من التنافس من الحضارة الغربية» وحدث هذا في العام1941 تقريباً. ولكن النازيين والسوفيتيين شاركوا في نواحي الضعف، مثلما شاركوا في نواحي القوة لتطرفٍ اتصف إلى درجة عالية بتدمير الأفكار التقليدية والدينية، ومن السهل أن نتخيل حضارة أقل تطرفاً، وأكثر نفعية (براغماتية) كان يمكن أن تكون ناجحة إلى درجة عالية، وتحتفظ بقسم أكبر من التراث الغربي، ولكنها مع ذلك تنبذ العديد من القيم الأساسية للغرب نبذاً يصل بها إلى النقطة التي ستكون فيها ممثلة لحضارة مختلفة.

في الفصل السابق، فحصنا ثلاث إستراتيجيات غربية متنافسة معاصرة مؤثرة، وهي: ما يدعى الاستعمار الإمبراطوري الليبرالي، والعالم ـ أمريكا، والغرب القلعة، وجميعها سيناريوهات معقولة في

ظاهرها، فإذا كان ما يحدث هو أي واحدة من الإستراتيجيات الثلاث، أو أي مزيج منها، فإن الغرب سيكون قد تخلى عن حضارته المميزة، وعن رؤية الآباء المؤسسين لأمريكا، ولقد كان مخططهم هو الوصول إلى الحرية الشاملة، إذ رغبوا في أن تمتد الحرية، التي كانت بلادهم قد كافحت، وعانت من أجل الحصول عليها، حتى تصل إلى أطراف الأرض، وذلك ليكون من الممكن استبعاد الاضطهاد، والانحياز، والدكتاتوريات، والحرب، إلى أقصى حد ممكن إنسانياً، إلى الماضي الذي جلله الظلام، وقد ألهمَ حلمُهم أنشطَ المثاليين الغربيين في القرنين الماضيين، وكانوا، بالتأكيد، متفائلين، إذ تجاوزت طموحاتهم الممكن إلى ما تبين أنه مستحيل، ومع ذلك فقد حركوا العالم ـ الذي كان دائماً في أيامهم، مثلما هو في أيامنا، مكاناً مضطرباً، تحاصره مشكلات ضخمة ـ ليكون أقرب إلى نموذجهم بشكل معبِّر مهم.

المثالية تتراجع، وليس الأمر مجرد أن الليبرالية ضعيفة، ومملة إلى الدرجة التي تجعل خرقها سهلاً، بل إن الواقعيين الجدد، والمرتابين وجمعاً غفيراً من «الضحايا»، ومنخفضي الإنجازات، وغير المتعلمين عمداً منهم، هم مدمرون نشيطون أو سلبيون لا للمثل العليا الليبرالية وحسب، بل لكل المثل العليا أيضاً، مدمرون لروح المسيحية، مع فاعليتها القلقة، ومدمرون للضمير ولأوامر الرحمة، وللرؤية المتفائلة للإنسانية، وهي التي تنظر إلى إمكانية الرجال والنساء أكثر من النظر إلى عيوبهم، وإلى الثقة في قيمة المعرفة الممتدة وأهميتها الأخلاقية، وإلى إمكانية استخدام النمو الاقتصادي لاستئصال الجوع، والحط من الكرامة والعوز، ومدمرون للفردية المسؤولة.

كل هذه المعتقدات جوهرية لطبع الغرب وتقدمه، والأعمال المدفوعة من هذه المعتقدات أجزاء متكاملة لا تتجزأ عن نشوء الغرب، وهذه المثل العليا قد أثبتت عمليتها على مر القرون، فهي تعمل، وتلهم، وتقود إلى نتائج أكبر، وإلى تعاون أكبر من أي مجموعة أخرى من المعتقدات والأعمال التي سبق لها أن عملت، وكل مجتمع خرق هذه المثل العليا، أو جعلها في مقياس أصغر ونسخٍ أكثر دونية، قد أخفق في العمل، ومثله الغرب أيضاً، أو، في حالات كثيرة، فإنه يخفق في العمل مطلقاً، وهكذا فحين نفقد نحن هذه المثل العليا، لا ينبغي أن نفاجأ إذا وقعت كل أنواع العواقب غير المقصودة، وفي هذه اللحظة، نحن نحصد تراثنا الماضي، ونتعيَّش بلا مقابل على الشعور الودي، والروح الإنسانية التي زرعها أسلافنا، ونستهلكها استهلاكاً كاملاً.

هل يمكن لرؤية الغرب أن تتحقق؟

الحضارات تتحرك إلى الإمام، أو هي تتحرك إلى الخلف، إنها تحقق الأحلام، أو هي تنبذها، وفي آخر 230 سنة، وصل الغرب إلى الاقتراب اقتراباً قطعياً إلى شكل جديد على نحو كامل من الخبرة الإنسانية، خبرة موسومة بالمثل العليا العالية جداً، ومن جملتها، داخل تلك الحضارة المشتركة، القضاء على الفقر، وتخفيف المعاناة، ومد حقوق الإنسان إلى كل واحد، ونهاية التراتبية الهرمية والتوقير، والتشديد غير المسبوق على تنمية كل المواطنين، ونهاية الحرب بين الأمم الغربية، وهذه الطموحات تطورت على مدى 2500 عام، وكان

روادها قادة بارزين، وجُربت في أتون النزاع الاجتماعي والحلول الوسط، واستقرت على مفاهيم دينية وسياسية فريدة، وعلى التفاؤل بشأن مصير الإنسانية، وصارت مفهومة قابلة للتصور بانتصارات العلم، والتقانة، والنمو الاقتصادي التلقائي، ووصلت، في نصف القرن الأخير، قريباً قرباً رائعاً من الإنجاز التام، بل إن هذا الاقتراب هو إنجاز مذهل.

كيف كان ممكناً لنا ألا نلاحظ؟ أين الكتاب، والسياسيون، والمذيعون، وهم يحثون على «دفعة أخيرة واحدة» لنحقق شيئاً ما نبيلاً ومرضياً إرضاء هائلاً؟ لماذا نحن مشغولون بالكوارث الممكنة، وليس بالمجد الممكن، المجد المعرَّف، لا بالدم والإمبراطورية، بل بالكرامة، والحرية الإنسانيتين الشاملتين؟

واأسفاه! الأخطار حقيقية، والنذير له ما يبرره، والمجتمع الحديث غير ميال إلى الحماسة البسيطة، أو إلى الطموح المشترك الجدي، فروابطنا الاجتماعية قد تراخت، وآمالنا قد صارت فردية، ومخاوفنا قد صارت جماعية، وأولئك الذين يفكرون حول العالم، بوصفه كلاً واقعيون بشكل مفرط، ونحن منوَّمون تنويماً مغناطيسياً بقوى مؤذية، ونحن قد تخلينا تخلياً كاملاً، وفقدنا إيماننا بفكرة أننا نستطيع أن نسيطر على تلك القوى، وأن نشكل حضارة عظيمة من أجل منفعة كل واحد.

التشظي ينتصر، ويأخذ السلطة من السلطات العامة، ومن المؤسسات المجتمعية، ويفوضها إلى الأفراد، وهذا ما يجعل من الأصعب أن يُهيكل المجتمع من أجل الخير المشترك، ولكنه لا يجعله مستحيلاً. صحيح، إن القرارات المهمة تُتخذ بشكل متزايد على المستوى الفردي، وهكذا فإن المجتمع لا يستطيع أن يستمر بالازدهار ما لم يتصرف معظم الناس تصرفاً مسؤولاً، وإن الإشارات المنذرة واضحة في كل أنحاء الغرب، مع وجود دلائل كثيرة على التفكك الاجتماعي، والاستهلاكية القسرية، والانحطاط، والتواكل، والأنانية الشخصية الساحقة، والتراجع إلى الغسق النفسي من عوالم شخصية محضة، ومخصَّصة.

ومع ذلك، فإن من مصلحة كل فرد أن يستمر في التمتع بمجتمع يعمل من أجل كل واحد، وأن يجعل الجميعُ العطفَ والحبَ مركزيين لطموحاتهم الشخصية، والغربيون أيضاً مكيفون تكييفاً قوياً بخلفيتهم وثقافتهم، وإلى هذا اليوم، ليمزجوا الفاعلية مع الرحمة، وتحسين الذات مع الضمير والاهتمام، وهذا التراث المشترك ربما يكون أضعف نوعاً ما، مما كان عليه، ولكن صلابته قد تفاجئنا، وإلا فكيف نفسر، من غير ذلك، السلوك التعاوني المستمر لمعظم المواطنين في وقت تكون فيه الإيديولوجية السائدة هي الأنانية المرتابة، والدائبة، والمدمرة للذات؟ إن قوة الغريزة المتعاونة الساندة يمكن أن تُرى في الاستجابة التلقائية للمواطنين العاديين في لحظات الأزمة الكبيرة، مثلما كان على سبيل المثال في أعقاب الهجمات الإرهابية في نيويورك، ومدريد، ولندن.

وفي نهاية الأمر، فإن الغرب يقوم على فكرة عظيمة واحدة، ومجموعة واحدة من الأفعال، واحدة تقف خلف الفِكَر الست العظيمة للحضارة الغربية، وتوحدها، والفكرة العظيمة،وهي العنصر المشترك، هي تولي المسؤولية الفردية لتحسين المرء لذاته وللعالم، وكانت هذه هي تركة المسيحية، وهي فكرة أن الله مهتم بكل رجل وامرأة، مهتم بأفكارهم الداخلية، وبفرديتهم، وبأعمالهم، ولقد بقيت هذه الفكرة على قيد الحياة سليمة سلامة كاملة، بعد الاختفاء الجزئي للإيمان بالله، لقد تطورت الروح إلى النفس، والغربيون الذين لا يؤمنون بالله يؤمنون بأنهم يمتلكون نفساً داخلية بنفس القوة تماماً التي يؤمن بها جيرانهم المسيحيون بذلك، ولقد قادت المسؤولية الشخصية إلى التفاؤل، وإلى الفاعلية، وإلى الاتجاه المعاكس، فالمسؤولية الشخصية، والإيمان بقوة لطيفة مفردة عاقلة في الكون، قادت إلى العلم التجريبي، واستحثت المسؤولية الشخصية أيضاً طبقة من النشيطين الحضريين ـ من التجار، والعاملين على التبادل التجاري الدولي، والمستكشفين، والصناع المهرة الأحرار، والحرفيين، والفنانين، والمخترعين ـ الذين استخدموا العلم والتقانة لخلق نمو تلقائي، وقاد نمو الطبقات الدنيا الطموحة، والواثقة بنفسها، والمحسِّنة لنفسها، ببطء على مرور عدة قرون إلى فكرة أن المجتمع يجب أن يضبط الدولة، ويسيطر عليها، وقاد في نهاية المطاف إلى الديمقراطية، وإلى الالتزام القوي بالمساواة في الفرص لكل شخص، وإن فكرة المسؤولية الشخصية، وتوليها على أيدي مئات الملايين من الناس، قادت على

درجة من الفردية الخلاقة في الغرب، وهي فردية لا نظير لها في التاريخ، وفي الجغرافية المعاصرة، لا في ثراء نتائجها الفكرية والعملية، ولا في تحدي الأفكار الراسخة، والسلطة في أي مكان في العالم.

الغرب يساند المسؤولية الفردية، إنه يقف بالمسؤولية الشخصية، أو يسقط بها، فهل سيقف أم سيسقط؟

بلا ريب، فإن مئات الملايين من الغربيين، المؤمنين، وغير المؤمنين يتولون المسؤولية الشخصية عن حياتهم، ويسعون إلى تحسين حياتهم، وتحسين العالم من حولهم، والأغلبية الكبيرة من هؤلاء الغربيين النمطيين يفعلون ذلك بهدوء، ومن دون بروز، ومن دون تفكير عموماً فيما يقومون به، وهم مدبرو البيوت ومدبراتها، والعمال، والمتطوعون، والأفراد الذين يختارون بقراراتهم كيف يعيشون حياتهم، ويتحملون المسؤولية الكاملة عن أعمالهم، ويقرون بنقاط ضعفهم، وبإخفاقاتهم، ولكنهم يسعون إلى أن يُحِبّوا، وإلى أن يكونوا محبوبين، ويعملون بأقصى إمكاناتهم الشخصية.

ولكن هناك كذلك، مئات الملايين من الغربيين الآخرين من المؤمنين، ومن غير المؤمنين، الذين يجدون العالم الحديث شديد التشويش، وشديد الغموض، وشديد التهديد، وببساطة يجدون العالم صعباً جداً، فهؤلاء هم الناس الذين يكونون، إما ضحايا أو أتباعاً مطيعين، أو كلا الأمرين، الناس الذين يرون أنفسهم فاشلين، وهم الذين يفتقرون إلى تقدير الذات، والذين قد يكونون مدمنين على الكحول، أو المخدرات،

أو الاستهلاك، أو العمل، أو هم الناس الذين يرفضون قبول تحدي الفردية، وبدلاً من ذلك يتبعون طبعة ضيقة من السلوك المفروض، ويحاولون أن يفرضوا ذلك الهيكل على الناس، وكثيرون من هؤلاء الأخيرين أصوليون متدينون، ويبدو أن عددهم ينمو في كل يوم، لا خارج الغرب وحسب، بل وبشكل أكثر خطورة داخل الغرب أيضاً.

والمسألة ليست مسالة أعداد فقط، من الغربيين المسؤولين في مقابل أولئك الذين يرفضون المسؤولية الشخصية، ولو كانت المسألة مسألة أرقام، لساد أولئك الذين يحملون المسؤولية بشكل جيد للغاية، فالكثرة في الأغلب أبرع من القلة، وأكبر المآسي في القرن العشرين كانت قد فرضتها القلة على الكثرة، القلة التي أنكرت الديمقراطية، أو تجاوزتها، والخطر الحقيقي اليوم، أيضاً، لا يأتي من الناس العاديين، ولكنه يأتي من واضعي الآراء، ومن اتجاهات المثقفين، والاتجاهات المناوئة للمثقفين، ومن المواقف السائدة، ومن الفِكَر والمواقف التي اخترعها ونشرها أولئك الذين يجب أن يعرفوا معرفة أفضل، ومن المشاهير والرموز الشعبية، ومن وسائل الإعلام، ومن الإنجيليين المتسلطين، ومن السياسيين الذين لا ضمير لهم، ومن رؤساء الأعمال التجارية والصناعية الأنانيين، ومن المثقفين المفرطين في الليبرالية، ومن المحافظين الجدد على حد سواء.

ولأول مرة في التاريخ، نحن نرى أناساً نجحوا، من خلال جهودهم الخاصة، ويعظون لا بإنجيل الكفاح والنجاح، وبالتفاؤل والخير العام، بل بإيديولوجية الارتياب، والتشاؤم، وعقلية الضحية، وهؤلاء من النخبة الجديدة، بعد أن ارتفعوا بفضل سُلَّم المجتمع الليبرالي،

والتراث الفكري للغرب، فإنهم يرفسون السُلّم بعيداً، وينكرون الصعود على الشباب من الناس، ويحرمونهم منه[1].

ويجري الانتقاص من الإنجاز الشخصي، ومن التميز الفكري، ومن الولاء للجماعة، ومن العقل والحقيقة، ويساوي ذلك في الخطر، أننا نرى قادة آخرين، وخصوصاً أولئك الذين يتولون السلطة السياسية، وخصوصاً في أقوى بلدان الغرب، يديرون ظهورهم إلى الليبرالية، والمساواة، وحقوق الإنسان، والرحمة لجميع بني الإنسان، مستخدمين أعذار الإرهاب، والجريمة، والهجرة، والباحثين عن اللجوء، وـ المستويات المنخفضة ـ ليعيدوا تشديد السلطة في الوطن، ويبنوا الإمبراطوريات في الخارج، فالليبراليون المفرِطون في الليبرالية والمحافظون الجدد يتظاهرون باحتقار بعضهم بعضاً، ولكن يحتاج بعضهم إلى بعض ويدعم بعضهم بعضاً دعماً قوياً، والأثر الناتج عنهما متشابه تشابهاً مرعباً. والموضوع المشترك هو إنكار المسؤولية الداخلية، فإحدى الفئتين من خلال اللامبالاة، والأخرى من خلال معرفة ما هو خير لنا، من خلال توكيد الانضباط الخارجي والسلطة، وكلتا الفئتين تقود إلى دمار حضارتنا، وكلتاهما تلقَى المساعدة على طوال هذا الطريق من قوة الأخرى.

وهناك، طبعاً، مستقبل بديل، مستقبل يستند إلى إعادة الإمساك بالفِكَر، وبالمثل العليا التي سبق أن جعلت الغرب قوياً، وناجحاً على

(1) جورج وولدن (2000) النخب الجديدة: صنع مسيرة وظيفية في الجماهير. بنغوين، لندن.

مدى سنوات عديدة جداً، مستقبل مستند، أيضاً إلى العزم والتصميم من أفراد ملتزمين ومسؤولين؛ كي يسهموا بالتبرع لمجتمعهم ولجيرانهم، ولقد رأينا هذا التصميم يبرز، على سبيل المثال، في سلسلة من «الثورات المخملية» في أوروبة الشرقية وفي غيرها، وفيها مارس آلاف الأفراد القيادة والمسؤولية، وأطاحوا بأنظمة الحكم الديكتاتورية بشكل سلمي، ونحن رأينا ذلك في التحول المذهل لإفريقية الجنوبية، لا من نظام التمييز العنصري إلى الديمقراطية فقط، بل من شبح الحرب الأهلية إلى مجتمع مستقر مؤسس على الغفران والتسامح أيضاً، ورأينا ذلك في قرار الملايين في أن تهرع إلى الشوارع عبر المدن الغربية لتقوم بحملة من أجل إنهاء الفقر، أو من أجل تبادل تجاري منصف، وديمومة بيئية، أو ريف ناضر[1]، ورأينا ذلك على مستويات محلية، في ديمقراطية منطقة صغيرة المدى، ورأيناه في وفرة من المبادرات لتحسين حياة الجماعة.

ومعظم هذه الأعمال وأعمال كثيرة أخرى ذات روح عامة، حدثت خارج نطاق السياسات الحزبية التقليدية،وخارج نطاق المحاولات المؤسسية، وخارج إطار القيادة من الأعلى إلى الأدنى، ولكن مثل هذه

(1) هذه الأفعال، طبعاً، ليست دائماً غيرية بشكل كامل، أو واقعية حين تكون منكرة للذات، فالفقر العالمي، على سبيل المثال، لن يحل بالمظاهرات، وحفلات الروك، والبذل الكريم، أو بأي وكالة خارجية أخرى، فلقد أعطى الغرب إفريقية عونا مقداره 450 بليون دولار منذ العام 1965، ولكن في أماكن مثل بوتسوانا فقط هرب الناس من الفقر، وهي الأماكن التي كان الأفارقة أنفسهم مسؤولين فيها عن إقامة مؤسسات ليبرالية وسياسات اقتصادية معقولة.

الأفعال لا تمثل شيئاً أقل من الناس، وهم يجتمعون معاً، بوصفهم أفراداً أحراراً؛ ليمارسوا المسؤولية الفردية، فهذه هي أفضل خصائص الغرب، وهي تعيد توكيد ذاتها في طرق جديدة، وهي تبين أن هناك حياة ما تزال موجودة حتى الآن في الوحش القديم.

خاتمة

المسيحية، والتفاؤل، والعلم، والنمو، والليبرالية، والفردية هي مجموعة متلاحمة من الفِكَر والمعتقدات، والممارسات، والأفعال، سبق لها أن حددت، وما زالت تحدد، حضارة عظيمة، حضارة نظرت إلى الداخل، وإلى الخارج معاً، حضارة هدفت إلى تحرير الروح الإنسانية ورفعها، رجالاً ونساء، أثرياء وفقراء، داخليين وخارجيين، شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، حضارة أمَّلت كثيراً للغاية، وأنجزت كثيراً للغاية، حضارة، تركت، بشكل غريب الفِكَر التي أعطت على هذا النحو الرائع، حضارة مقدر لها أن تفشل من خلال قيود فرضتها على نفسها، حضارة مهيأة لتتحول إلى حضارة أقل جاذبية بكثير، وقبل مرور وقت طويل، حضارة يحتمل أن تكون أقل نجاحاً بكثير!

إن الذي فرضه الأفراد على أنفسهم يمكن أيضاً أن يزيلوه بأنفسهم، فالانتحار الجماعي ممكن تماماً، لا بل إنه قد يكون مرجحاً، ولكن لا، إنه بالتأكيد ليس محتوماً.

إن الحضارة الغربية قد وصلت إلى مَفْرَق، على أحد شعبتيه، يحمل الطريق حالياً المزيد من المرور، ويوجد فيه الارتياب، والأنانية غير

الملطفة، واللامبالاة، وإعادة المركزية والعدوان ، وهي صفات دعت لها ومارستها معاً عناصر مختلفة في المجتمع، ومع ذلك فهم يساندون مساندة كلية خصومهم الظاهرين، ويمكن لهذه الطريق أن يأخذ أشكالاً عديدة، من الفوضى السياسية إلى الفاشية الجديدة، والانهيار البيئي، إلى الإمبراطورية الأمريكية الجديدة، ومثل هذه الأشكال كلها، على كل حال، سوف تشير إلى نهاية الحضارة الغربية، بوصفها المثل الأعلى الديمقراطي والفردي الذي تخيله الأوروبيون والأمريكيون، وغذوه واجتذبوا إليه؛ ليقتربوا اقتراباً أكثر طوال مئات السنين، والحضارة الغربية لن يدمرها أعداؤنا، ولكنها قد تُدَمَّر بأيدنا نحن أنفسنا.

وعلى الشعبة الأخرى من الطريق توجد استعادة الشجاعة، والثقة بأنفسنا وبثقافتنا، وبالوحدة العاطفية داخل أمريكا وداخل أوروبة، وبين أوروبة وأمريكا، ومع العناصر الأوروبية الأخرى، يوجد مجتمع وحضارة يضمان بليوناً من الأفراد المسؤولين، مرتبطين معاً لا بالسلطة، أو بالقسر، أو بالمعتقدات التقليدية التي لا تخضع للمناقشة، ولكن بالمواقف المكتشفة ذاتياً والموثقة ذاتياً من الكفاح الشخصي، والتفاؤل، والعقل، والرحمة، والمساواة، والفردية، والهوية المشتركة، وهذه الطريق معبدة ومضاءة إضاءة ساطعة، والارتحال فيها ليس صعباً تلك الصعوبة، ولكنه يتطلب تغييراً في الاتجاه.

وسواء أُكمِل، أم لم يستكمل، فإن مصير الغرب ـ النابع من فِكَره الفريدة، والواضح فيما سبق له أن أحرزه بشكل جوهري – هو أن يخلق حضارة رحيمة إنسانية على نحو كامل، وحرة وثرية، بفضل إطلاق

الآمـال، وأهم من ذلك، إطلاق الصـفـات الكامنة الممكنة والأخـلاقـيـة، لجـميع شـعـبـهـا، وحسب المتصـور تمامـاً، وفي الوقت المناسب، لتكون نموذجاً جذاباً جاذبية كافية؛ لتستنهض معظم الإنسانية.

obeikandl.com